الشاعر الهمشرى كما عرفته

ذكرى وبحث وتحليل

بقلم الدكتور محمد أبو طائلة
رئيس تحرير مجلة التعاون

كان أول عهدى بشعر «الهمشري» حين كنت محرراً للبلاغ الأسبوعى فى سنة ١٩٢٦، وكان من أبواب هذه الجريدة باب عنوانه «ديوان الأسبوع» أنشر به مختارات مما يبعث به الشعراء. ففى أحد الأيام جاءتنى قصيدة قليلة الأبيات عنوانها «العين الزرقاء» وموقعة بإمضاء (م.ع. الهمشري) ولم يكن معها خطاب ولا إيضاح وإنما دلنى ختم البريد على أنها مرسلة من المنصورة.

أعجبنى من ذلك الشعر رقته وحلاوته، فنشرته فى أول «ديوان الأسبوع» وقدمته على قصائد شعراء آخرين معروفين، وقد كتبت تحت عنوان القصيدة أنها «للأستاذ م.ع. الهمشري»، ولم أكن أعلم فى ذلك الحين أن هذا «الأستاذ» ليس إلا فتى يافعاً وتلميذاً بمدرسة المنصورة الثانوية.

وهكذا قال الهمشرى الشعر، ونشرت له أولى قصائده، وهو لم يكد يتخطى دور الطفولة، فكان الشاعر الموهوب منذ حداثته، وكأنما أحس قصر العمر فتجعل الإنتاج الأدبى واستحث النبوغ والعبقرية، فما أن بلغ الثلاثين حتى كان قد صعد الذروة وأدى الرسالة.

أما آخر عهدى بشعره – ويا للأسف – فقصيدة عنوانها «عاصفة فى سكون الليل» أعدها للنشر فى مجلة التعاون، فأبى القدر إلا أن تنشر بعد وفاته. ويراها القارئ فى ختام هذا المقال.

نشأته وبيئته :

المعروف عن «الهمشري» أنه ولد بمدينة السنبلاوين، لأنها موطن أهله وعشيرته، ولكن الحقيقة كما عرفتها منه أنه ولد «برأس البر» أثناء اصطياف أسرته على

عادتها كل عام. وكان والده المرحوم عثمان بك الهمشري، شغوفاً بالموسيقى والغناء، لا يفتأ يقيم حفلات موسيقية خاصة ويدعو إليها أصحابه من الأعيان، ويعزف فيها على «القانون» الذى كان يجيد العزف عليه، فيشق سكون الليل أعذب ألحانه.

وفى هذا الجو الموسيقي، وتلك البيئة الفنية، وفى سكون الريف ورفاهية أعيانه، نما شاعرنا وترعرع، وجمع بين شاعرية متمكنة من نفسه، وبين تأثير ذلك الوسط الشعرى الجميل، فكان كالبذرة الصالحة تغرس فى تربتها الملائمة، فتنمو وتورث وتؤتى أكلها بعد حين.

وما أن شب عن الطوق ودخل مدرسة المنصورة الثانوية حتى فاضت نفسه بشعرها الكامن، يقوله على السليقة من دون كلفة، فكان شاعر المدرسة الذى لا يبارى.

ومن عجب أنه وهو طالب صغير بتلك المدرسة قد أكثر من الاطلاع على الأدب العربى القديم حتى جنى من اللغة العربية وكلماتها محصولاً وافراً استغله فى شعره فى ذلك الحين وفى السنوات التاليات.

ولما تخرج فى مدرسة المنصورة الثانوية دخل كلية الآداب بالجامعة المصرية إذ وجدها أقرب من غيرها إلى ميله ونزعته. غير أنه كان فيها يتبع وحى هواه فى الاطلاع ولا يرضى أن يقيد نفسه ببرنامج للدراسة. وانتهى الآمر به إلى أن خرج منها بعد سنتين، وراح يستزيد من الاطلاع وقد تفتحت أمامه أبواب الأدب الإنجليزى فأخذ يلجها ويجنى من هذا الأدب محصولاً يضيفه إلى ثروته من الأدب العربي.

وفى عام ١٩٣٤ عين محرراً لمجلة التعاون ومكث يدبج المقالات والقصائد لها حتى اغتالته المنية صباح يوم ١٤ ديسمبر الماضى (المقصود سنة ١٩٣٨) على أثر عملية جراحية.

مزايا شعره :

كان طبيعياً وقد نشأ (الهمشري) فى تلك البيئة الريفية أن يحب الريف ويعشق الطبيعة، ومن ثم امتاز شعره أول كل شيء بوصف الطبيعة والإشادة بالريف. وبينا غيره من شباب الشعراء يتغزل بفتاة حسناء، كان هو رحمه الله ينظم قصيدة طويلة فى وصف زهرة أو شجرة، أو طائر، أو التغنى بطلوع الفجر أو ظهور الشفق، أو الترنم بخرير الماء أو صياح الديك، أو مثل ذلك من مظاهر الريف ومحاسن الطبيعة.

وقد خلق فى «مجلة التعاون» باب «الأدب الريفي» و«الأدب التعاوني» وفيهما كان بحق رسول الريف إلى الحضر، الذى لا يفتأ يبدى جمال الحقول، ويندد بمن لا يرون آياته فيفرون إلى المدن الصاخبة.

ومن الشعر ما تقرأه فتحس أن صاحبه نحته نحتاً، وتشعر فى قراءته بمثل ما عانى الناظم فى «نظمه». أما شعر الهمشرى فكالماء الزلال انسياباً، لا جهد فيه ولا عناء، بل سليقة مطردة، ووصف متماسك، يجذب أوله آخره. وقد حقق فى شعره «وحدة القصيدة» التى كانت مطلباً قديماً عجز دونه أكثر الشعراء. فإذا قرأت قصيدة له خيل إليك لتماسكها ودقة وصفها أنها «صورة» رائعة لمنظر بديع، وحسبت أن الشاعر إنما هو «رسام» أبدعت ريشته تلك الصورة. غير أنه رسام لا يلهيه الكل عن الجزء، فهو يعنى بكل دقيقة ويبرزها كما يعنى بالمجموع كله.

ومما يتصل بذلك وصفه «للألوان» فى قصائده وصفاً ما أحسب شاعراً سبقه إليه، حتى ليصح أن يدعى «شاعر الألوان» كما أنه شاعر الريف والطبيعة. وقد كان رحمه الله فى حياته الخاصة يحب الألوان ويلتفت إلى كل زاه غريب منها، ويبدو ذلك فى اختياره «أربطة الرقبة» على الخصوص، فقد كان كل حين يفاجئنى برباط جديد منها يلبسه، وما كاد أعجب من ألوانه حتى أراها جميلة غير متنافرة.

أما حسن السبك واختيار اللفظ وموسيقية الشعر، فكلها ماثلة فى قصائده الممتعة. حدثنى حضرة صاحب العزة الدكتور إبراهيم رشاد بك مدير التعاون قال:

«كان الهمشرى رحمه الله يعلم أولادى الصغار فى بعض الأحايين ففى أحد الأيام كان عليهم أن يحفظوا قصيدة إنجليزية عنوانها Snow Drop وما يقابلها من شعر عربى ترجمها إليه شاعر لا أذكره. وقد جهد الأولاد حتى حفظوا القصيدة الإنجليزية ولكنهم عجزوا عن حفظ الأشعار العربية التى ترجمت إليها، حتى اعتذروا لى بصعوبة ألفاظها، فما كان من الهمشرى إلا أن ترجم تلك القصيدة ذاتها إلى شعر عربى سلس، وسرعان ما حفظها الأولاد عن ظهر قلب».

وقليل مثله من الشعراء، لم يتجر بشعره، ولم يتقرب به إلى كبير، ولم يلتمس منه مصلحة شخصية، ولم يتخذه أداة للانتقام والأذى.

ديوانه :

كان أول قصيدة نشرت للهمشرى هى قصيدة «العين الزرقاء» التى أشرت

إليها فيما سلف. وقد ظهرت بعدها عدة قصائد له فى جريدة «السياسة الأسبوعية» وقدمه وقتئذ إلى قرائها حضرنا الدكتور هيكل بك (باشا) والدكتور طه حسين بك بثناء وافر، ثم أخذ ينشر قصائده فى مجلة «أبوللو» التى كان يصدرها حضرة الدكتور أحمد زكى أبو شادي.

وعلى ذكر هذه المجلة أقول أنها أصدرت عدداً خاصاً به ملحمة طويلة من نظم الهمشرى عنوانها «شاطئ الأعراف» وقد أوغل فيها فى فيافى الخيال على طريقة «الفريد دى موسيه» فى «الياليه» ولكن دون معانيه، فقد كان الهمشرى رحمه الله لا يكتب إلا وحى نفسه ولا يرضى أن يستمد معنى من أحد. والحق أنه بتلك الملحمة قد كون مجده فلم يعد بحاجة إلى مزيد، ولو لم يكن له سواها لكفت لأن تسلكه فى عداد كبار الشعراء المجددين.

ثم نشر رحمه الله قصائد عديدة فى مجلة «المقتطف» ومجلة «الرسالة»، على أن أكثر شعره الذى نظمه فى السنوات الثلاث الأخيرة قد خص به مجلة التعاون، وعليها أعتمد فى كتابة هذه العجالة.

هذا وقد عزم حضرة صاحب العزة الدكتور إبراهيم رشاد بك على جمع شتات شعر الفقيد فى ديوان يصدره قريباً، تقديراً له ووفاء لذكراه.

أخلاقه :

كان الهمشرى شاعراً فى حياته الخاصة لا فى شعره وحده، فكان قليل النظام، لا يحب أن يقيد نفسه بأى برنامج فى عمه ورياضته، وفى مأكله ومشربه. وإنما كان يتبع وحى هواه ومزاجه، وقد يترك نظم الشعر وكتابة المقالات وترجمة الموضوعات، أياماً متوالية، وإذا به فى يوم أو يومين يعوض كل ما فاته فينظم بضع قصائد ويحرر عدة مقالات. ومتى وافاه هواه صمد للعمل وأبدى فيه جلداً لم أره لغيره، وكان يعاونه عليه شبابه وقوته وبعده عن كل مرض.

وعلى الرغم من صحته وشبابه، لم يكن بالشاب الطائش الذى ينغمس فى اللهو والمتعة، بل كان أقرب إلى الجد والرزانة، كثير الحزن إذا خلا إلى نفسه، حتى إذا صار فى مجلس لم يلبث أن يصبح منبع أنسه ومصدر بهجته.

وكان سريع الغضب، سريع الرضا، له قلب كقلوب الأطفال صفاء ونقاوة، لا يعرف الحقد ولا الرياء ولا المواربة، بل جبل على الصراحة التى تؤلم من كان لا

يعرف طباعه.

وكان شديد الأنفة من دون كبر، معتزاً بكرامته لا يفرط فى ذرة منها لكبير أو صغير، كثير الاعتداد بالنفس من دون غرور، يرحب بالنقد ويستمع إلى النصح، يحترم من هو أكبر منه سناً، ولا يبدأ أحداً بعدوان.

وكان قليل الكلام عن نفسه وشعره، لا يطالعك بقصائده إلا إذا طلبت إليه، فيلقيها إلقاء يزيد فى جمالها.

وكان وفياً لأصدقائه يؤثرهم على نفسه، فلا عجب أن عظمت فجيعتهم فيه وبكوه كما يبكى الأخ الشقيق أو أشد.

رسول الأدب الإنجليزى :

كان الفقيد عضواً «بالاتحاد المصرى الإنجليزي» ولم يكن ذلك عبثاً ولا وليد المصادفة، فقد عرفه الإنجليز من أعضاء ذلك الاتحاد رسولاً للأدب الإنجليزى إلى قراء اللغة العربية، وكانوا يعجبون بوفرة اطلاعه على أدبهم وتعمقه فى دراسة شعرائهم، وخصوصاً «شيلي» الذى كان دائم الإشادة بحلاوة شعره.

ولم يقف جهده فى هذا الميدان عند حد الدراسة، بل ترجم كثيراً من القصائد الإنجليزية الرائعة إلى شعر عربى رصين، لا يحسب قرائه أنه (مترجم) لولا أنه منسوب إلى أصله، وأذكر من ذلك قصيدة I F «إذا» لشاعر الإمبراطورية البريطانية رديارد كبنج التى ضمنها نصائح غالية للنشء البريطاني، وقصيدة «القرية المهجورة» لأوليفر جولد سميث، وقصيدة «إلى القمر» لشيلى الخ.

وإليك بعض أبيات مترجمة من القصيدة الأولى:

إذا أنت قد صدقت نفسك بينما	ظنون الورى ترتاب فى ذلك الصدق
وبالرغم من هذى الشكوك عذرتهم	وقابلت هذا الشك باللين والرفق
إذا استطعت أن تقصى عدوك عن أذى	وتأمن حتى صاحباً لك وافيا
إذا أنت قدرت الرجال جميعهم	ولم تك فى هذا الحساب مغاليا

ومن قصيدة «القرية المهجورة»:

واسوأتاه لأرض أصبحت غنماً	ترعاه عاجلة الأقسام والنوب
تزداد ثروتها والقوم نخوتهم	تهوى فتؤتها خوارة العصب

أهـل الإمـارة مـن صـيد غطارفـة   أو من ذوى الجاه والألقاب والرتـب

ومن قصيدة (شيلي) بعنوان «إلى القمر»:

أشـاحب أنـت مـن هـم وتفكـير   وسـاهم أنـت مـن ضـنك وتكـدير
تـسير بـين نجـوم لـيس يوثقهـا   عمـد ومـسراك فى هـذه الـدياجير

شاعر الطبيعة :

من قصيدة للهمشرى فى وصف الربيع:

هـو الربيـع إذا هبـت شـمائله   هـز البـسيطة دانيهـا وقاصـيها!
فـصل جميـل مـن الجنـات مـشرقه   تبـدى الطبيعـة فيـه كـل مـا فيهـا!!
كـأن أيامـه والحـب يـشملها   أحـلام حـسناء طافـت فى لياليهـا!
كـأنها النـور فـوق العـشب مـسرحها!   والزهر أسرابها دفت على فيهـا!! (١)

ومن قصيدة عنوانها «طلوع الفجر»:

فى سـكون الليـل والفجـر غريـق   نبـه الإنـسان صـيداح الـسحر
مـا لهـذا الـشرق يبـدو فى حريـق   أذعـر الأنجـم منـه والقمـر
أيهـا النعـسان فى دنيـا الـسما   تتمطـى فى سريـر الـشفق
النـدى حولـك يهمـى موهنـاً   والأزاهـير حيـارى الحـدق
هتـف الكـروان فى الأفـق البعيـد   كالمـصلى تحـت محـراب القمـر
ناسـك فى الليـل يـدعو ويعيـد   هـام وجـداً بالـذى صـاغ الـسحر

شاعر الريف :

من قصيدة له بعنوان «مسارح الشفق»:

شـأن نفـسى وذاك فى غـرام   أن تحـب النبـات والأعـشابا
وتلـذ الجلـوس فى ظـل أيـك   رفـرف الطـير فوقـه أسرابـا
وانحنـت تحتـه الغـصون سـكارى   مـائلات أعطافهـا إعجابـا
يتغنـى بـين الـثمار بلحـن   هـل سـمعت القيـان غنـت طرابـا

---

(١) دفت رفرفت.

obeikan.com

مـن وحيـدين يـسجعان سرورا وفريـدين يـشدوان انتحابـا
وجـرى الماء فى الغـدير رحيقـاً وجـرت فوقـه الزهـو رحبابـا
وكـأن النـوار فيـه نجـوم ركبـت تحتهـا الميـاه سـحابا
وحكـى السرو فى الربى مستهاماً وحكـى بينـه الغـدير كعابـا

ومن قصيدة له عنوانها «الأغنية المسائية أو عودة الراعي»:

هـا هـو الليـل مقبـل يتهـادى فارسـاً يمتطـى ظهـور الـتلال
ونـسيم المـساء يـسرق عطـراً مـن ريـاض سـحيقة فى الخيـال

ومنها قوله:

كـم مـشينا بـين الحقـول طـويلاً نـشتكى الـشوق والهـوى والغراما
وإذا مـا تعبـت نجلـس حينـاً فـوق شـط الغـدير نـشكو الـسقاما
تحـت تعريـشة الكـرم نرعـى قمـر الليـل فى جـلال الـسكون
وخريـر الميـاه فـاض غنـى مثـل قلبـى يهـدى إليـك حنيني
والنـسيم العليـل يعبـق عطـراً يتهـادى فى غـيرة مـن دلالـك
ونجـوم الـسما تحنـو علينـا بـشعاع يحكـى شـعاع جمالـك

الشاعر الرسام :

من قصيدة للفقيد عنوانها «حدائق الشفق»:

بين الـدجى واحمـرار شعه الشفق النـور يـرقص فى عينـى ويـأتلق
لا هـدأة تـسعد الحـيران لا سـنة تقـر عينـى بهـا قـد شـفها الأرق
فـلا أرى غـير أحـلام مكوكبـة وغـير رسـم سـماء بـات يحـترق
هذا النهار خلال السحب يظهر لي لقـد لمحـت عـلى الـوادى بـشائره
تلـوح شـاحبة فى الـشرق حالمـة توشـع الـسحب الـدنا ضـفائره
وأنت.. نافورة الحسن التى خفيت أيـان ألقـاك.. أو ألقـى مـصادره؟

ثم قوله :

وكانـت الـسحب الغـيماء سـارية على المحيط خفاف الركب فى سرب
قد أبدعت صبغ وشى من مطارفها فى حمـرة عجـب، فى فتنـة ذهـب
وتـرقص الأنجـم الزهـراء رقصتها فى مطلـق مـن أثـير الجـو ملتهـب!

ثم قوله :

أمـا الـذى وشـع الأمـواه بـالنور   فـزورق ناصـع الألـوان بللـوري
بينـاه فى ثـائر الأمـواج مـضطرب   يختـال مـا بـين تـصعيد وتغـوير
بـدا الـدليل لـه فى الليـل منبهـراً   فى لؤلـؤى مـن الأنـوار مـسحور
لم يـشهد الكـون فى آزالـه أبـداً   هـذا الجـلال الـذى يـسرى على الماء
قد ظل نجم الدجى سهمان يقذفه   بأسـهم تتهـاوى منـه وضـاء
صيغت من الليلك الغـافى أشعتها   فأصـبحت بـين بيـضاء وزرقـاء..

شاعر يرثى نفسه :

كأنما كـان يحس الهمشرى دنو أحله وهـو فى ميعة الصبا، وكـان يردد هـذا الشعور فى قصائده وإن لم يتحدث به قط إلى أصحابه، ولعـل أصرح نبوءة لـه قولـه فى نهاية قصيدة «العودة»:

لقد خف نسيم الصبح يهمس ناعباً   إلى الـسهل أن فـارق الكـون شـاعر
لذا نقس النحـل الزهـور فجلجلت   ونابت عن الأجـراس هـذى الأزاهـر

وكأنما كانت روحه تطل على الأبدية وهو لا يـزال فى هـذا العـالم الفـاني، يـدل على ذلك قوله فى القصيدة عينها:

لقـد فرغـت فى عـالم الحـزن جـولتي   ومـا فرغـت منـى الليـالى الـدوائر
فيـا أفـق الـدنيا ويـا فجـر ليلهـا   ومـن خفقـت فيـه المنـى والخـواطر
ومـن تـسبح الأحـلام فى ملكوتـه   حيـارى وتغنـى فى هـواه المـشاعر
أيـا شـفقاً فى عـالم جـو أرضـه   خيـال عـلى الـوادى المهـوم سـاحر
تحف بها فى الـصمت أشجار جنة   يفـاوحنى منهـا عـلى الـوهم عـاطر
واسـمع موسـيقى بهـا ذهبيـة   تفـيض بهـا فـوق المـروج فيـائر
واتـرك عينـى فى الخيـال تـشقه   فـألمح أشـباحاً هنـاك تـسامر

وقوله فى قصيدة »حدائق الشفق«:

ذهلت فى حلم غـاف... وخيل إلي   أنـى عـبرت طريقـاً كلهـا ظلـم
لم يغشها من بنى الإنسان مقتحم   قـبلى ومـا وطئـت أرضـاً بهـا قـدم
يحـف دغـلاً تثير الـنفس وحـشته   الـصمت أيكـه والليـل والأجـم

وقوله فى القصيدة عينها:

أحسست بالقلب ناراً طاف طائفها ... كما رأيت نمير البحر قد سطعا
وقفت منذهلاً، أرعاه، مفتعلاً ... كأن نور إله فوقه طلعا
أحنيت رأسى إجلالاً وتكرمة ... له وظلت من التقديس مختشعا

الهمشرى التعاونى :

لم يكن من محض المصادفة أن يعمل الهمشرى فى قسم التعاون خمس سنوات متواليات، فقد كان فى إمكانه إذا شاء أن ينال «وظيفة» أحسن من وظيفته و«درجة» أعلا من درجته، فى ديوان آخر من دواوين الحكومة. ولكنه مال إلى التعاون بكل قلبه، لأنه ألفاه يتصل بالريف اتصالاً وثيقاً، ويخدم الريفيين الذين نشأ بينهم وأحبهم حباً صادقاً.

ومن ثم لم يكن عمله فى مجلة التعاون عمل «الموظف» الذى يؤدى «واجبات وظيفته» بل كان يشعر دائماً أنه يعمل فى حركة إصلاحية عظيمة الأثر وأنه يساهم فيها بنصيبه. فلا ينى يكتب المقالات ينادى فيها بإصلاح أحوال الريف ويقترح إيجاد أعياد زراعية. وكان لا يفتأ يتنقل فى قرى الصعيد والوجه البحرى ليزور الجمعيات التعاونية القائمة فيها ويكتب عنها فى مجلة التعاون، منوهاً بتقدمها أو مرشداً إلى عيوبها. ومن لطائفه أن شاعريته كانت تغلب عليه عند الكتابة عن تلك الجمعيات فيفيض فى وصف القرى وما حولها، ويقف بقلمه مثلاً وقفة طويلة عند شجرة جميز صادفته فى إحدى جولاته.. فتخرج مقالته قطعة من الأدب أو قصيدة من الشعر المنثور.

ولعل أقوى برهان على إيمانه بالتعاون أنه فى آخر مرة زاره فيها حضرة صاحب العزة الدكتور إبراهيم رشاد بك مدير التعاون بالمستشفى، أوصاه الفقيد، وهو لا يكاد يقدر على النطق، بأن ينشيء جمعية تعاونية فى بلدته (السنبلاوين) قائلاً إنها لا يليق أن تبقى عاطلة من التعاون وقد أفنى ابنها زهرة شبابه فى خدمته.

وكان قبل أيام قليلة من وفاته المفاجئة يزور بنادر (المنيا) وقراها ويبحث أحوال الحركة التعاونية فيها.

وقبل بضعة أشهر بدأ يدرس التعاون بالمراسلة مع كلية التعاون بمانشستر ليحوز دبلومها بعد ثلاث سنوات لولا أن دهمه الموت.

الهمشرى الصحفى :

كان وقت الفقيد مقسماً بين الشعر والصحافة، ونفس عمله بالحكومة لم يكن سوى عمل صحافى لأنه لم يمارس طول «توظفه» غير التحرير فى مجلة التعاون، وكان رحمه الله فضلاً عن ملء باب «الأدب الريفي» أو «الأدب التعاوني» بشعره الجزل، يكتب أبواباً أخرى ويحرر موضوعات عديدة بالمجلة، ويترجم مختارات من المجلات التعاونية الإنجليزية، ويرتب أعداد المجلة ترتيب صحفى قدير.

على أنه إلى جانب ذلك اشتغل بالصحافة اليومية زمناً طويلاً فقد مكث زهاء العام وهو يترجم كل يوم تقريباً قصة قصيرة لجريدة (المصري) وكذا روايات طويلة متسلسلة، ثم جعل ينشر رواياته فى جريدة (الدستور). وكتب كذلك عدة قصص لجريدة (الصباح) وترجم كثيراً من (روايات الجيب) وكتب بعض موضوعات لجريدة (المصور)، كل ذلك وهو بعيد عن السياسة لا يرضى أن يخوض بقلمه فى بحار (الحزبية) بأى حال.

obeikan.com